

رَفَع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تأليف
سليم الهلاوي



الصَّبْرُ الْجَمِيلُ

في ضوء الكتاب الكريم والسنة الصحيحة

دار ابن القيم

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ
عبد الرحمن البخاري
أسكنها الفردوس
www.moswarat.com

الصدر الجميل

جَمِيعَ الحُفُوقِ بِحِفْوَظَةٍ

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ

هاتف : ٨٢٦٨٣٤٣ - ص.ب : ١٨٦٥ - الدمام - رمز
بريدي : ٣١٩٨٢ - الدمام - جنوب الاستاد الرياضي -
المملكة العربية السعودية



الصبر الجميل

في ضوء الكتاب الكريم والسنة الصحيحة

تأليف
سليم الهلاوي

دار ابن القيم

رَفَع
عبد الرحمن البجاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قَابَسٌ مِنَ الشَّرِّ

قَالَ تَعَالَى:
فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا
سُورَةُ الطَّاعِجِ آيَةٌ ٥

مِنْ مَسْطَاتِ النَّبِوةِ

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الإيمان: الصبر والسماحة

رَفَعُ
عبد الرَّحْمَنِ الرَّحْمَنُ
أُسْكُنَا الْبَيْتَ الْغَرُوبِي
www.moswarat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ
أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا
هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أما بعد:

فإنَّ العبدَ لا يستغني عن الصبر في كلِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ، وذلك
أنَّ جميعَ ما يلقى العبدُ في الدُّنيا لا يخلو من نوعين:

النوع الأول:

النعم التي أسبغها اللهُ على عبده ظاهراً وباطناً فهو محتاجٌ إلى الصبرِ
عليها، فلا يركنُ إليها، ولا ينهمكُ فيها، ويراعي الحقوقَ فيُعطي كلَّ ذي
حقِّ حَقَّهُ.

النوع الثاني:

المصائب التي تحيقُ بالعبدِ فتأخذُ الأحيبةَ، وتُهلكُ الأموالَ فهو

مُحْتَاجٌ إِلَى الصَّبْرِ فِيهَا فَلَا يَجْزَعُ .

وَهَكَذَا يَكُونُ الصَّبْرُ ضَرُورَةً بَشْرِيَّةً وَفَرِيضَةً شَرْعِيَّةً تُلَازِمُ الْإِنْسَانَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَتَقَلُّبَاتِهِ .

وَلِذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ هَذَا الْمَقَامِ الْأَعْلَى ، وَالْمَقْصِدِ الْأَسْمَى ، فِي ضَوْءِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ الْمَوْسُومَةُ بِـ «الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ» .
وَأَرْجُو اللَّهُ أَنْ يَتَقَبَّلَهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَيَجْعَلَهَا لِلصَّابِرِينَ إِمَامًا تَهْدِي بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .

وكتبه

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي
ليلة السبت غرة ربيع الآخر
سنة ألف وأربعمائة وثمان من هجرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم في
عمان البلقاء عاصمة الأردن

١ - ما هو الصبر؟

هو حبس النفس على طاعة الله بالمحافظة عليها دواماً، ورعايتها إخلاصاً، وتحسينها علماً.

هو كف النفس عن المعاصي، وثباتها في مقابلة الشهوات ومقاومة الهوى.

هو الرضى بقضاء الله وقدره دون شكوى فيه ولا معه.

رَفَعُ
عبد الرحمن العجمي
أسكنها الفردوس
www.moswarat.com

٢ - ما هو حكم الصبر؟

اعلم أبا الإسلام - أيدك الله بروح منه - أن الصبر واجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة وهو كذلك بالضرورة العقلية.

ذكر الله - سبحانه وتعالى - الصبر في كتابه العزيز في بضع وتسعين موطناً بأنواع عديدة تدل على وجوبه منها:

١ - ٢ - الأمر به، كما في قوله عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠].

٢ - ٢ - النهي عن ضده، كما في قوله تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ ءَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرِّسَالِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾

[الاحقاف : ٣٥].

٢ - ٣ - الأمر بالاستعانة به، كما في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

[البقرة : ١٥٣].

٤ - ٢ - الشناء على أهله، كقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ^ط وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

٥ - ٢ - إيجابه محبته لهم، كقوله جل ثناؤه :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

٦ - ٢ - إيجابه معيته لهم، كقوله :

﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

٧ - ٢ - إخباره بأن الصبر خير لأصحابه، كقوله :

﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٥] .

٨ - ٢ - إيجاب الجزاء للصابرين بأحسن أعمالهم، كقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦] .

٩ - ٢ - إجابة - سبحانه وتعالى - الجزاء بغير حساب :

﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

١٠ - ٢ - إطلاق البشرى لأهل الصبر :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ

وَالْأَنْفُسِ وَالْثَمَرَاتِ ^ط وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

وأما السُّنَّة الصَّحِيحَة فهي طافحة بالأحاديث الدالة على وجوبه،
منها:

قال صلى الله عليه وسلم:

«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن
أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).

وأما الإجماع فقد قال ابن قيم الجوزية في «مدارج السالكين»
(١٥٢/٢):

«وهو واجب بإجماع الأمة».

والواجب على العاقل أن يوقن أن الأشياء كلها قد فرغ منها، فمنها ما
هو كائن لا محالة، وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه، فإن دُفِعَ إِلَى
حال شدة وجب عليه أن يَتَزَرَّ بِإِزَارِ لَهُ طَرْفَانِ:

أحدهما: الصبر.

والآخر: الرضى.

ليستوفي كمال الأجر لفعله ذلك، فكم من شدة صعبت وتعذر زوالها
على العالم بأسره ثم فُرِّجَ عَنْهَا فِي أَقْلٍ مِنْ لَمَحِ الْبَصْرِ.

وليعلم العبد الطائع أن وجوب الصبر على الجملة لا على التفصيل
وذلك كما هو مُبِينٌ فِي مِظَانِهِ.

(١) أخرجه مسلم (١٢٥/١٨ - نووي) وغيره من حديث صهيب - رضي الله عنه.
وفي الباب عن غيره من الصحابة - رضي الله عنهم - خَرَّجَتْ بَعْضُهَا فِي «جَزْءِ»
محمد بن عاصم» (رقم ١٠).

رَفَعُ
عبد الرحمن البخاري
أسكنه الفردوس
www.moswarat.com

٢ . الصبر ضرورة دنيوية وفريضة شرعية

الصبر ضرورة لازمة للإنسان ليلبغ آماله، وتنجح مقاصده، فمن صبر ظفر.

فلولا الصبر لما حصد الزارع بذرة، ولما جنى الغارس ثمرة، وهكذا كل الناجحين في الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر: استمروا المرء، واستعذبوا العذاب، ومشوا على الأشواك، ولم يبالوا بالعوائق، والله در أبا يعلى الموصلي القائل:

إني رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد في أمرٍ يحاوله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر
قد يعثرون لكنهم سرعان ما ينهضون، وقد يفشلون مرات ومرات
لكنهم لا يياسون.

لا ييأسن وإن طالت مُطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومد من القرع للأبواب أن يلجا

هكذا أمر الدنيا فكيف من أراد الفلاح في الآخرة؟

لا شك أن حاجته للصبر أوكد، وضرورته إليه أشد وألزم، خاصة

وقد حمل الأمانة التي تنوء بحملها السماوات والأرض والجبال.

وأهل الإيمان أشد تعرضاً للأذى والمحن والابتلاء في أموالهم وأنفسهم وكل عزيز لديهم، لأنهم ينشدون الجنة وهي سلعة الله الغالية، فلا بد لها من ثمن... ولا مَفَرٌّ من الثمن.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد دفعه أهل الحق على مر العصور فلا بد أن يدفعه إخوانهم من

بعلمهم

قال جل جلاله:

﴿ أَلَمْ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [١] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴾ [٢] [العنكبوت: ١-٣].

وقال أيضاً:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى

نَصْرُ اللَّهِ الْأَيَّانَ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿ [البقرة : ٢١٤] .

قال صلى الله عليه وسلم:

«أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلماً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»^(٢).

والابتلاء خير لأهل الإيمان في الجملة لأمر عدة:

أ- يطهر الصف المسلم من الأدعياء الذين لبسوا لبوس المؤمنين، وقالوا: نحن معكم، فإذا أصابت أحدهم فتنة أو محنة في سبيل دينه خارت قواه، ووهنت عراه، وفيهم يقول الله:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٠] .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدارمي (٣٢/٢)، وابن حبان (٦٩٨ و ٦٩٩)، والحاكم (٤٠/١، ٤١)، وأحمد (١٧٢/١، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) وغيرهم.

من طريقين عن سعد بن أبي وقاص به مرفوعاً.
قلت: وهو صحيح.

وله شاهد آخر:

أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، والحاكم (٣٠٧/٤) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
قلت: وهو كما قال.

فالابتلاء يعزز هذه الأصناف من بين المؤمنين، وينفي الخبث من صفوفهم كما ينفي الكير خبث الحديد.

قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩].

ب- تربية المؤمنين، فالابتلاء ينضجهم، ويقوي عودهم ويصقل معدنهم.

قال تعالى:

﴿ وَلِيَمِخَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴾

[آل عمران : ١٤١].

وقال سبحانه:

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

بذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤].

ج- يرفع المؤمنين درجات، ويضاعف لهم في الحسنات ويكفر عنهم الخطايا والسيئات، فيخرجون من الابتلاء كيوم ولدتهم أمهاتهم.

وذلك لأن الذنوب لازمة للبشر، فمن رحمة الله بعباده المؤمنين أن يتعهدهم بالابتلاء الفينة بعد الفينة، لتتحات خطاياهم بالصبر.

قال صلى الله عليه وسلم:

«فما يريح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه

خطيئة»^(٣).

(٣) مضي تخريجه برقم (٢).

ومن هنا أمر الله المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة على ثغور
لنفس لئلا يتسرب إليها اليأس والجزع والسخط والوهن ولن يغني عنهم
ذلك شيئاً.

وإذا كان الصبر ضرورة لأهل الإيمان فهو أكثر للرسل والنبين فهم
أئمة أهل الإيمان فهم أشد الناس ابتلاءً.

وقد كان أولو العزم من الرسل أشد المرسلين ابتلاءً فكان صبرهم
محل القدوة والأسوة.

قال تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرِّسْلِ ﴾ [الاحقاف : ٣٥] .

وأشد هذه النخبة المصطفاة من المرسلين ابتلاء هو خاتمهم محمد
صلى الله عليه وسلم الذي قال :

«لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أخفت في الله وما يخاف
أحد»^(٤).

فلا غرو أن نجد آيات كثيرة تأمر الرسول صلى الله عليه وسلم
- بالصبر والاصطبار منها :

قول الله تعالى :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

[يونس : ١٠٩] .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١) وأحمد (١٢٠/٣ و ٢٨٦)، وابن
جبان (٢٥٢٨)، والبغوي في شرح السنة (٢٧٦/١٤).
من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس به مرفوعاً .
قلت : وهذا إسناد صحيح .

وهو به .

﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود : ١١٥] .

وقوله :

﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
غُرُوبِهَا وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾

[طه : ١٣٠] .

وقوله :

﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾

[الطور : ٤٨] .

وقوله :

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر : ٧] .

فيا أخوتي في الله هكذا كان سيد الصابرين حتى أتاه اليقين، فلكم
به أسوة حسنة، وقدوة صالحة .

٤ - منزلة الصبر

المتتبع للمواطن التي ذكر الله سبحانه وتعالى فيها الصبر في كتابه الكريم وللمواضع التي قالها الرسول صلى الله عليه وسلم يتبين بجلاء أن الصبر ذو مقام كريم، وخلق عظيم.

ويدلك على ذلك أمور هاكها:

١ - ٤ - اقتران الصبر بالقيم العليا في الإسلام.

أ - قرنه الله باليقين في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايُنِنَا يُوقِنُونَ ﴾

[السجدة : ٢٤] .

لا يخفى على الربانيين أن شياطين الإنس والجن يقتحمون النفس البشرية بسلاحين:

أحدهما: الشهوات لإفساد سلوكه؛ فيغوى.

قال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا

عَظِيمًا ﴿ [النساء : ٢٧] .

الأخر: الشبهات لإفساد فكره، فيضل.

والمؤمن الذي يرباط على ثغور نفسه يجاهد هؤلاء الأعداء بسلاحين
أمضى وأقوى:

أحدهما: الصبر فيجثث الشهوات والأهواء.

والآخر: اليقين فيحطم الشبهات والأوهام.

فمن اجتاز هذه القنطرة كان إماماً للمتقين... وهل تنال الإمامة في
الدين إلا بالصبر واليقين، وسيأتي مزيد بيان وحسن تفصيل - إن شاء الله.

ب - وربطه الله سبحانه وتعالى بالشكر أربع مرات في أربع
سور.

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى
السُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿
[ابراهيم : ٥] .

وقال تبارك اسمه:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۗ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿ [لقمان : ٣١] .

وقال جل ثناؤه:

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُونَا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ

وَمَرَقْنَهُمْ كُلَّ مُمْزِقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿ [سبا : ١٩] .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوْادِكَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿ [الشورى : ٣٣] .

وكذلك جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الشكر والصبر فقال :

«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٥) .

ت - وجمعه الله سبحانه وتعالى مع التوكل في قوله :

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ [النحل : ٤٢] .

وقوله :

﴿ نِعَمَ أَجْرَ الْعَمَلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿

[العنكبوت : ٥٨ - ٥٩]

فمن جمع الصبر والتوكل فقد حقق مراده، وبلغ غايته لأن النجاح يتوقف على أمرين :

أحدهما : من جانب المرء، وفي مقدوره، من جهود تبذل، وصعاب تذلل، وهذه أمور بحاجة إلى صبر ومصابرة .

والآخر : ما لا يملكه مما يحجبه الغيب، وتخبئه الأقدار، وهذا لا يملك المؤمن إزاءها إلا التوكل على الله، والالتجاء إلى ركنه الشديد .

(٥) مضى تخريجه برقم (١) .

ث - وقرنه رب العالمين بالصلاة في قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

[البقرة : ١٥٣]

ج - وقرنه بالتسبيح والاستغفار في قوله تعالى :

﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾

[الطور : ٤٨] .

وقال :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ

وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر : ٥٥] .

ح - وجمعه مع الجهاد في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٠]

والجهاد ذروة سنام الجهاد، وكذلك الصبر ذروة سنام الأخلاق، لأنه يضمها، ومن أكمامه تخرج مكارم الأخلاق، كما سيأتي - إن شاء الله .

خ - وربطه بالتقوى في قوله :

﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

[آل عمران : ١٨٦] .

د - وبالحق في قوله تعالى :

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ٣] .

وتعظيماً لمنزلة الصبر فقد كرر لفظة التواصي به، ولم يكتف بعطفه على الحق دون إعادة صيغة التفاعل تأكيداً على مكانته، وتنبهها على أهميته المستقلة بذاته، واستحقاقه لأن يتواصى به أصلاً لا تبعاً.

ذ - وقرنه بالرحمة في قوله تعالى :

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد : ١٧] .

الصبر هو الثبات على فعل الخير، والرحمة هي المحرك لفعل الخير، ومن هنا كان الربط بينهما، والإشارة إليهما.

والمتبع لكلمة «تواصوا» يجدها قد ذكرت أربع مرات في القرآن الكريم: ثنتين في سورة العصر، ومثلهما في سورة البلد، وكان للصبر الحظ الوافر حيث ذكر مرتين، وهذا يفيد أمور:

الأول: علو منزلة الصبر، وأهميته في دين الله وحياة المؤمنين.

الثاني: مشقته على النفوس وأن اسمه كطعمه، فلذلك يحتاج إلى التوصية والتذكير بين المؤمنين.

الثالث: إن الصبر هو العامل المشترك بين قيم الإسلام الذي يجمع شملها، ويلم شتاتها، فتبعث موات القلوب، ومن أجل هذا المعنى قرن بها في أكثر المواضع، وقد أشرنا إلى بعضها، والله أعلم.

٢ - ٤ - اشتمال الصبر على أخلاق الإسلام.

اعلم أيها العبد الصابر ابتغاء مرضاة الله أن الصبر يدخل فيه أكثر أخلاق الإيمان، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات، ودونك البيان.

العفة صبر عن شهوة البطن والفرج.

الشجاعة صبر في ساحات الوغى.

الحلم صبر على دواعي الانتقام عند فورة الغضب.

سعة الصدر صبر عند الضجر.

القناعة صبر على الكفاف واليسير.

الرضى بالقضاء صبر على المصيبة.

الكتمان صبر على إخفاء أمر.

ضبط النفس صبر على دواعي طغيان شهوات النفس.

والزهد صبر عن فضول العيش.

فها أنت ترى أن شجرة الأخلاق الإسلامية ساقها الصبر ولذلك لما

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان قال:

«السماحة والصبر»^(٦).

وبذلك فإن المسلم لا يسعه أن يستغني عن الصبر في كل حال من

أحواله.

(٦) أخرجه الحاكم (٦٢٦/٣) وضعفه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٣٥٧). من طريق بكر بن خنيس عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده مرفوعاً به.

قلت: وهذا إسناد حسن - إن شاء الله.

بكر بن خنيس اختلف فيه اختلافاً كثيراً لكن القلب يطمئن إلى ما قرره الحافظ في «التقريب» (١/١٠٥) حيث قال: «صدوق له أغلاط».

وتابعه محمد بن ذكوان عن عبيد بن عمير بن عمرو بن عبسه.

قلت: محمد بن ذكوان ضعيف.

وتابعه أيضاً سويد أو حاتم حدثني عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده.

قلت: وسويد أبو حاتم ضعيف.

أخرج هذه المتابعات ابن نصر في «الصلاة» (٥/١٤٣). وله عنده شاهد مرسل صحيح من طريق ابن شهاب الزهري عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن عبيد بن عمير.

وبذلك يثبت الحديث - إن شاء الله.

٥ - شروط الصبر

١ - ٥ - الإخلاص:

الصبر مشترك بين الناس جميعاً، لكن الذي يفرق الصبر الشرعي عن غيره هو الدافع، فالصبر المحمود في القرآن والسنة هو ما كان لله تعالى حيث يقول تبارك وتعالى:

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر: ٧].

وقال أيضاً:

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [الرعد: ١٢٢].

لقد مدحهم الله لأنهم صبروا ابتغاء وجه الله، وهذا هو الإخلاص المبرأ من شوائب الرياء، وحظوظ النفس.

٢ - ٥ - عدم شكوى الله.

شكوى الله إلى العباد تنافي الصبر، وتخرجه إلى السخط والجزع.

قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه :

قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عواده أطلقته من إساري ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل^(٧).

ولله در الشاعر الحكيم:

وإذا عرتك بلية فاصبر لها صبر الكريم فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

٣ - ٥ - أن يكون في أوانه .

الصبر المحمود والمأجور عليه صاحبه هو ما كان في أوانه أما إذا فات الأوان فلا جدوى منه لأنه صبر في غير محله وبعد انتهاء أمدته وزمانه .

وهذا ما حكاه الله عن صبر أهل النار :

﴿ وَبَرُّوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدْنَا اللَّهَ لَهَدَيْنَاكُمْ
سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : ٢١] .

وقال جل جلاله :

﴿ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٦] .

(٧) أخرجه الحاكم (٣٤٩/١) والبيهقي (٣٧٥/٣) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

قلت: إسناده صحيح رجاله ثقات .

عن أنس رضي الله عنه قال:

مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأة عند قبر وهي تبكي فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقي الله واصبري».

فقالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه.

قال: فقليل لها: إنه النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: فأخذها مثل الموت. قال: فأنت باب النبي صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوابين.

فقالت: يا رسول الله لم أعرفك.

فقال صلى الله عليه وسلم: «الصبر عند الصدمة الأولى»^(٨).

(٨) أخرجه البخاري (١٤٨/٣ - الفتح)، ومسلم (٢٢٧/٦ - ٢٢٨ - نووي) وغيرهم. والمراد بالصدمة الأولى مفاجأة المصيبة عند ذروتها وحموتها، لأنه إذا طالت الأيام وقع السُّلُو طبعاً وحينئذٍ لا فائدة من الصبر لأنه جاء بعد فوات الأوان.

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٦ . مجالات الصبر

١ - ٦ - الصبر على بلاء الدنيا.

لا أحد يسلم من آلام النفس، وأمراض البدن، وفقدان الأحباء، وخسران المال.

وهذا ما لا يخلو منه بر ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولكن المؤمن يتلقى هذه المصائب برضى وطمأنينة تفعم قلبه الذي أسلس قياده لمقلب القلوب والأبصار لأنه يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفُسِ وَالْثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالبلاء هنا عام يصيب القلوب بالخوف، والبطون بالجوع والأموال بالنقص، والأنفس بالموت، والثمرات بالآفات.

ومن لطف الله ورحمته بعباده أنه جعل البلاء: ﴿بشيء من

الخوف... ﴿ الآية ليدل على التقليل مراعاة لضعف العباد وتخفيفا عليهم ورحمة بهم .

وفي هذا المجال كان صبر أنبياء الله مثلاً يقتدى فأيوب صبر على مرضه وفقد أهله، ويعقوب صبر على فراق ولده، وكيد أبنائه، ويوسف صبر على السجن والافتراء والدس والتشويه الذي مارسته امرأة العزيز قبل أن يحصحص الحق.

٢ - ٦ - الصبر عن شهوات النفس .

إذا أخذت الدنيا زينتها وأقبلت على الإنسان تتراقص كالحسناة اللعوب، ونشرت شهواتها ذات اليمين وذات الشمال، فهذا لون جديد من الابتلاء إنه فتنة السراء، لأن الله يبلو عباده بالشر والخير.

قال تعالى :

﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الانبياء : ٣٥] .

انظر رحمك الله لقد جعل ذو الجلال والإكرام التنعيم والإكرام ابتلاء كالنضيق في الرزق سواء .

ولذلك فالعبد محتاج إلى الصبر عن ملاذ الدنيا وشهوات النفس فلا يطلق لها العنان لتسترسل وراء شهواتها من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث .

وثمة أمر آخر للصبر في هذا المجال إنه الصبر عن التطلع إلى دنيا الآخرين، والاعتزاز بما ينعمون به من مال وبنين .

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ ۗ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۗ ﴿١٣١﴾ [طه : ١٣١] .

ولا تظن أيها العبد القانع بما آتاه الله أن ما في أيدي الطغاة العتاة
المغرورين نعم... إنها نقم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ألم تقرأ قول الله تعالى :

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا مَدَدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ۗ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۗ

بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۗ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ - ٥٦] .

وهذا هو المثال لا يزال شاخصاً للذين يعتبرون في كل القرون لقد
خرج قارون الذي ملك الكنوز ذات المفاتيح التي تنوء بالعصبة أولى
القوة... خرج على قومه في كامل زينته، وأبهى حلته، وفخامة موكبه
ومركبه، فقال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها في حسرة وتلهف :

﴿ يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص : ٧٩] .

ولكن الدنيا لن تخلو من ناصح أمين وورث العلم والإيمان والصبر
من المرسلين :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٠] .

وكان ما قدره الله فصل الخطاب :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِءٍ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ

يَقُولُونَ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ
مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاذِبُونَ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿

[الفصص: ٨١-٨٢].

٣ - ٦ - الصبر على طاعة الله .

الطريق إلى الله مليئة بالعوائق، لأن النفس بطبعها تنفر من القيود، والعبودية لله قيد لشهوات النفس، ولذلك فالنفس لا تستقيم على أمر الله بيسر وسهولة، فلا بد من ترويضها، وكبح جماحها، وهذا يحتاج إلى اصطبار.

قال تعالى:

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۗ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥].

وقال جل ثناؤه:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه: ١٣٢].

والصبر على طاعة يتكون من ثلاث شعب:

الأولى: صبر قبل الطاعة بتصحيح النية والإخلاص والتبرؤ من شوائب الرياء.

قال تعالى:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[هود: ١١].

لقد قدم الله سبحانه وتعالى - الصبر على العمل .

الثانية: الصبر حال الطاعة حيث لا يغفل عنها أثناء تأديتها ولا يتكامل فيأتي بها على أكمل وجه مشروع متبعاً ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم حذو القذة بالقذة .

قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [العنكبوت : ٥٨ - ٥٩] .

الثالثة: الصبر بعد العمل فلا ينظر لنفسه بعين العجب، فيتظاهر بما قدم سمعة ورياء، لئلا يحبط عمله ويبطل أجره، ويمحو أثره .

٤ - ٦ - الصبر في الدعوة إلى الله

الدعوة إلى الله سبيلها طويل، تحف به المتاعب والآلام، وذلك أن الدعاة يطلبون من الناس أن يطلقوا أهواءهم، وينحروا أهوامهم، ويثوروا على شهواتهم، ويقفوا عند حدود الله أمراً ونهياً .

وأكثر الناس لا يؤمنون بهذا النمط الجديد، فيتخذون من هذه الدعوة عدواً يحاربونه بكل سلاح .

وأمام هذه القوة العاتية، والسلطة الطاغية لا يجد الدعاة مفرأ من الاعتصام باليقين والصبر، لأن الصبر سيف لا ينو، ومطية لا تكبو، ونور لا يخبو .

وحيث لا بد أن يتنادى أهل الإيمان ليتواصوا بالحق، ويتواصوا

بالصبر لينجو من الخسران المبين الذي يواجهه الفارين من وجه الهدى.
وفي ذلك أنزل الحق سورة كاملة هي سورة العصر:

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُفْرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٢ - ٣].

ومن هذه العصابة المباركة العبد الصالح لقمان وابنه وها هو لقمان بوصي ابنه:

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

ودونك أيها الداعي إلى الله على بصيرة بعض المعوقات التي تعترض طريقك لئلا تأخذك على حين غرة:

(أ) إعراض الناس عن دعوتك.

لا شيء أثقل على صاحب الحق وهو يصيح بأعلى صوته، وينادي بملء فيه لينقذ الناس من الظلمات إلى النور، فلا يجد إلا آذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً... وأناساً قد استغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكباراً.

فها هو نبي الله نوح - صلى الله عليه وسلم - يناجي ربه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَهُمْ فِيْءِ آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٥ - ٧].

ولكن التحديات تزيد عود الداعية صلابة، وهمته شموخاً، فلا يفتأ

قائماً على أمر الله، ظاهراً على الحق، لا يضره من خالفه، ولا من خذله حتى يجعل الله له سبيلاً:

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨٥﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٨٦﴾ ﴾

[نوح : ٨ - ٩] .

هذا هو شأن قوم أول المرسلين نوح صلى الله عليه وسلم وهو موقف قوم خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم لم يتغير ولم يتبدل، وهذه هي سبيل المجرمين في كل القرون... أتواصوا به بل هم قوم طاغون.

ويصف الله تبارك وتعالى موقف قريش من النبي صلى الله عليه وسلم:

﴿ حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا نَحْنُ عَالِمُونَ ﴾ [فصلت : ١ - ٥] .

ولهذا قال الله تعالى أمراً نبيه صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۗ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾

[النمل : ١٢٧ - ١٢٨] .

ب - الأذى من الناس قولاً وفعلاً:

أعداء الحق يقابلون الإحسان بالإساءة، فالداعي إلى الله يمحض

لهم النصح فيتهموه بما ليس فيه، ويدعوهم إلى الله بالموعظة الحسنة فيردوه بالسوء، ويجادلهم بالتي هي أحسن فيقاوموه بالتي هي أخشن، يصدع بينهم بالحق فلا يسمع منهم إلا الباطل.

وفوق هذا كله تمتد يد الباطل إلى الأموال فتنهبها، وإلى الأبدان فيعذبها، والحرمان فينتهكها، والأنفس فيقتلها.

وهذا ما أشار إليه رب العزة مخاطباً المؤمنين ليوطنوا أنفسهم على الصبر والثبات:

﴿ لَتُبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْيَ كَثِيْرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

وفي الآية نكت لطيفة ينبغي لفت نظر الدعاة إليها:

الأولى: وصف الله سبحانه وتعالى الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشركين بالكثرة، وهذا يدل على أن حرباً كلامية وإعلامية ستشن على أهل الإيمان.

أسلحتها: التشويش، والتشويش، والدس، والافتراء، والتحريف.

شعارها الغاية تبرر الوسيلة واكذب واكذب حتى يصدقك الناس.

فلا بد من احتمال مكارهها، والصبر على تجرع غصصها حتى يأتي أمر فيحق الحق، ويبطل الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

الثانية: قرن الله الصبر بالتقوى فلا بد أن يجمع المؤمنون التقوى والصبر لمواجهة هذه الحرب الضروس.

الصبر للثبات في وجه الباطل.

والتقوى للتعفف عن مقابلة الخصوم بأسلحتهم الخبيثة، فالمؤمن لا

يواجه الدس بالدس، ولا الافتراء بمثله، لأن المؤمنين يحكمهم قول الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ٨] .

الثالثة: قرن الله بين أهل الكتاب والمشركين هذا مع اختلاف مشربهم ووجهتهم.

وفي هذا لفتة رائعة إلى أن عداوتهم للإسلام وأهله وحدت بينهم على اختلاف.

هذا ما قرره القرآن الكريم قبل مئات السنين وأيده التاريخ والواقع. لقد وجدنا اليهودية العالمية والصليبية، والشيعوية الدولية تختلف بينها أشد الاختلاف، ثم تتناسى هذا كله عندما يكون الإسلام هو العدو. قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ ءَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الانفال : ٧٣]

وقال جل ثناؤه:

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ ءَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية : ١٩] .

نعم... أيها المسلمون: إن الكفر ملة واحدة.

إن عجبي لا ينقضي من أمة يقرر دينها هذه الحقيقة، ولكنها تتكالب على خطب ود أعدائها من يهود ونصارى وشيوعيين، ويرتمي ولاة أمرها في أحضانهم... فصبر جميل، والله المستعان على ما يفعلون.

وأنباء الله جميعاً يمثلون هذا النوع من الصبر حيث قالوا رداً على أذى أقوامهم:

﴿وَلَنصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

[ابراهيم : ١٢] .

وكان عزاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرسل جميعاً من قبله حدث لهم الأذى والتشويه والافتراء:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ

آتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الانعام : ٣٤] .

ومن هنا أمر الله رسوله أن يصبر على إيذاء قومه:

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَنْهَرِهِمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل : ١٠] .

ولقد ضرب سحرة فرعون حين وقع الحق فآمنوا مثلاً رائعاً في الصبر، فلم يفت من عضدهم، ولم يرزع يقينهم تهديد فرعون:

﴿إِنَّمَا آمَنَ بِهُ قَبْلَ أَنْ نَأْذَنَ لَكَ بِذَلِكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُمُهُ فِي الْمَدِينَةِ

لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَا قَطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّن

خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الاعراف : ١٢٣-١٢٤] .

ما هذا الوعيد الهادر من طاغية جبار يقول للناس: أنا ربكم الأعلى، وما علمت لكم من إله غيري.

إن أمواجه تتحطم على يقين المؤمنين الذين وقفوا كالجبال الشم،

ولكنهم توجهوا إلى الله ليثبتهم، ويلقي في قلوبهم السكينة، ويفرغ عليهم
الصبر:

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِعَايَلَتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

[الاعراف : ١٢٥ - ١٢٦] .

ت - استبطاء النصر والفرج :

لقد جعل الله سبحانه وتعالى العاقبة للمتقين، وكتب لهم التمكين
في الأرض ليكون الدين كله لله، ولكن هذه المنزلة لن يبلغها المؤمنون
بين عشية وضحاها، ولن تتحقق بالأمني والأحلام، ولن تشرق شمسها إلا
بعد ليل طويل حالك من الفتن والشدائد والمحن، تزيغ لهولها الأبصار،
وتبلغ القلوب الحناجر، ويظن الناس بالله الظنون، هنالك يبتلي المؤمنون
ويزلزلون زلزالاً شديداً، ولا يثبت إلا المخلصون، حينئذ يكون نصر الله
أقرب للمرء من نفسه التي بين جنبيه.

قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَسْتَهْمِبًا وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ
اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

متى نصر الله؟ استبطاءً له، واستعجالاً لمجيئه؛ هنالك يجيء الغوث
للملهوف، والفرج للمكروب، فتفرح القلوب - ألا إن نصر الله قريب.
وليعلم المسلم المتعلق بحبال الفرج أن في التأخير لطائف أسرار
منها:

إن الكرب كلما اشتد كان الفرج قريباً كما في قوله تعالى :
﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْعَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ
مَنْ نَّشَاءُ ۗ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

وإن الكرب كلما اشتد وجد اليأس من كشفه من جهة المخلوق،
وازداد التعلق بالخالق حتى يصل العبد إلى محض التوكل الذي هو من
أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، كما قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وإن الكرب كلما اشتد فإن العبد حينئذ يحتاج إلى زيادة مجاهدة
الشیطان لأنه يأتيه فيقنطه ويسخطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه،
فيحوز ثواب مجاهدة عدوه ودفعه .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم :

«يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي
فیدع الدعاء»^(٩) .

واعلم أخوا الإيمان أن المؤمن كلما استبطأ الفرج واستيأس منه ولا
سيما بعد كثرة الدعاء وإلحاح التضرع ولم تظهر له أثر الإجابة رجع إلى
نفسه يلومها، قائلاً: إنما أتيت من قبلك .

وهذا اللوم أحب إلى الله من أكثر الطاعات لأنه يورث انكسار العبد
الصالح لربه فلذلك يسرع إليه الفرج ويتوالتب إليه اليسر لأن الله عند
المنكسرة قلوبهم لأجله، وعلى قدر الكسر يكون الجبر .

(٩) أخرجه البخاري (١٤٠/١١) ومسلم (٢٠٩٣/٤) .

قال تعالى:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

٥ - ٦ - الصبر حين البأس:

إذا لاقى المسلمون أعداءهم زحفاً فإن الفرار حينئذٍ كبيرة موبقة، حيث يصبح الصبر فريضة لازمة، فالصبر هنا شرط أساسي للنصر، وعنصر ضروري لقهري العدو.

قال صلى الله عليه وسلم:

«النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وإن مع العسر يسراً»^(١).

ومن هنا أتى الله على الصابرين تحت ظلال السيوف فقال:

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

واعظم ما تستد به الحاجة إلى الصبر في الحرب عندما ينفرط عقد الصف، وتدب روح الهزيمة في المقاتلين، وتنتشر الشائعات المثبطة

(١٠) أخرجه أحمد (٣٠٧/١) والحاكم (٥٤٢/٣) والطبراني في «الكبير» (١١/١٠٠) والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/٣٩٧-٣٩٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٤٥)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٦٣٤) وأبو نعيم في الحلية (١/٣١٤) وغيرهم.

من طرق عن ابن عباس - رضي الله عنهما. قلت: مفرداتها لا تخلو من مقال لكنها بمجموعها يصبح الحديث حسناً وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة، والله أعلم.

للهمم المحطمة للعزائم .

وخير من يمثل هذا المجال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فعندما كان يشتد الوطيس يتخذه المسلمون جنةً، كما حدث في غزوتي أحد وحينين .

ولقد كان النبيون من قبل صابرين في ساحات الوغى .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

[آل عمران : ١٤٦] .

وها هو طالوت والقلعة المؤمنة من جنوده يلقي على المؤمنين درساً عملياً حيث عقد لجنوده امتحاناً ليختبر صبرهم .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

هكذا يجب على القائد الحريص على دعوته وجنده أن يختبر قدرتهم قبل أن يقذف بهم في المعارك، حيث تتجلى الحقيقة الهامة وهي: أن الذي لا يصبر على الأمر اليسير لا يمكن أن يثبت عند التقاء الجمعين، فلا بُدَّ من التربية قبل الجهاد .

إن الذين نجحوا في الامتحان قلة تبين صبرها عند الشدة، فاجتازت النهر مع طالوت .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ

وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةَ
كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا
رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾
[البقرة : ٢٤٩ - ٢٥٠] .

يا لروعة التعبير القرآني المعجز... إنهم لم يسألوا الله قَدْرًا معيناً
من الصبر بل طلبوه أن يفرغ عليهم إفراغاً... إن نفوسهم لم تطعم ماء
النهر ولكنها تواقا لتشرب كأس الصبر حتى الثمالة.
وكانت النتيجة التي ستكرر على مر العصور:

﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ... ﴾

[البقرة : ٢٥١] .

٦ - ٦ - الصبر على الزوجة والأولاد:

النساء والبنون أمور محببة للنفس الإنسانية، بل هما زينة الحياة الدنيا،
لذلك فهما فتنة لقوله تعالى:

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

[الأنفال : ٢٨] .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم - الكثير من جبلة النساء
لتستبين للرجال سبيل معاملتهن، والصبر على ضعفهن الذي يسبب
خلافات في العلاقات الزوجية.

ولذلك لا تستقيم الحياة الزوجية إلا بأن يكون الزوجان واقعيين يصبر

كل منهما على صاحبه، ويتحمل منه بعض ما لا يروقه، بل بعض ما يؤذيه.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى الرجال بالصبر، فإن أحس بالنفور في نفسه قبل زوجه، فليقدم العقل على العاطفة، وينقاد للأخلاق على اتباع الهوى والشهوة.

قال تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْعًا

وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

٧ - ٦ - الصبر على الأخوة في الله:

أشاد الله بنيان المجتمع الإسلامي على أسس قوية، وعرى وثيقة، ووشائج مترابطة تنتظم كيان الأمة الإسلامية، فتغدوا جسداً واحداً.

لكن الإنسان من طبيعته النقص، والنسيان، والغفلة لذلك قد يصدر منه أفعال تؤذي إخوانه.

فإن قابلوها بمثل فعله كانوا عوناً للشيطان عليه، لذلك لا بد أن بمحضوا له النصح، ويدروا بالحسنة السيئة، ليعود المخطيء إلى عرينه فيأترف الشمل، ويستأنف العمل.

وفي هذا يقول رب العزة تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا

الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٤١﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ

صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو جَهَنَّمَ عَظِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّمَا يُنَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ

نَزَّغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ [فصلت : ٣٤ - ٣٦] .

وبشر الله سبحانه وتعالى الذين استجابوا لهذا النداء الرباني بالفوز والنجاح والفلاح :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿ [الرعد : ٢٢] .

وهذا النوع من الصبر يجب أن يكون مشفوعاً بالرحمة والشفقة والرأفة على الأخ لتزداد الإلفة، ويتماسك البناء، وتشتد أركانه.
قال تعالى :

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿ [البلد : ١٧ - ١٨] .

فظوبى لمن ألجم نفسه بلجام الحلم، وكبح جماحها عند فورة الغضب ودواعي الانفعال، وحرص على دفع التي هي أخشن بالتي هي أحسن لأن هذا السلوك الجميل يهدي للتي هي أقوم، ويحيل العدو اللثيم إلى صديق حميم.

وهكذا فلتكن أيها الأخ في الله حريصاً على كسب قلب محب لأنك بذلك تنقص صف الأعداء واحداً.

٨ - ٦ - الصبر على طلب العلم :

العلم ميراث النبوة فمن سلك سبيله فقد أخذ بحظ وافر، وطالب

العلم يجب أن يراعي آداب الطلب، ويصبر على لأواء الطريق، ويتجشم الصعاب ليلبغ ما أراد.

وفي قصة موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح وهو الخضر بيان لضرورة صبر طالب العالم إن أراد أن يصل إلى بغيته، ويدرك غايته.

قال تعالى:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عَلِيمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رَشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي سَازِئَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصَلِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَابُوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ

قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ [الكهف : ٦٥ - ٧٨] .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أخبر في حديث طويل بتفاصيل هذه الرحلة العلمية:

«يرحم الله موسى لو كان صبراً يُقَصُّ علينا من أمرهما»^(١) .
ودونك فقه القصة:

١ - طالب العلم يجب أن يكون متواضعاً فلا يدعي أنه أعلم زمانه، ولا يزعم أن ما عنده من علم أوتيته من عند نفسه .

ولذلك أراد الله أن يؤدب موسى - عليه السلام - وهو نبيه وكليمه - الذي أجاب على سؤال: لا أعلم على الأرض أعلم مني!

لقد كان يجب أن يرد علم ذلك إلى الله، لأنه لا علم للبشر إلا ما علمهم الله، وفوق كل ذي علم عليم .

فلعل هذا المقصد الرباني يرسخ في قلوب كثير من طلبة العلم الذين لم يروا إلا أنفسهم، فراحوا يقسمون رحمة الله بين عباده مخدوعين بما يرونه من كثرة العرض لبعض الناس، أو لأنفسهم متناسين أن العلم لا يقاس بالكم ولكن بالكيف .

٢ - طالب العلم يجب أن يصبر وبصابر فلا يستعجل لأن من استعجل الشيء قبل أوانه ابتلي بحرمانه .

٣ - طالب العلم يجب أن يلتزم مع شيخه بما عقد معه من شرط؛ فالمؤمنون عند شروطهم .

(١١) أخرجه البخاري (٤٣١/٦ - ٤٣٣ - الفتح) وغيره .

٤ - يجب أن يراعي الشيخ ضعف تلميذه فلا يواخذه من أول عشرة بل عليه أن يذكره، ويتعهده بالإرشاد.

وفي هذه القصة القرآنية التي فصلتها السُّنة النبوية الصَّحيحة أمور عظيمة أدغمتها لا تخفى على طلبة العلم عند التأمل والتدبر.

ولقد صنف أهل العلم من هذه الأمة تصانيف طيبة تعالج آداب طلب العلم وصفات المتعلم وأخلاق المتعلم منها: «جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله» و«الفقيه والمتفقه» و«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» وغيرها كثير طيب.

٧ - فضائل الصبر

رتب الله تبارك وتعالى خيرات الدنيا والآخرة على الصبر، فكل خير ترتجيه، وكل شر تهرب منه منوط بالصبر.

١ - ٧ - معية الله مع الصابرين، لقوله جل شأنه:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال:

﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الانفال: ٤٦].

وقد ذكرت هذه المعية في عدة مواطن من كتاب الله.

٢ - ٧ - محبة الله للصابرين، لقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٣ - ٧ - صلوات من الله ورحمة على الصابرين، لقوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ ﴿ [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] .

ففي هذه الآية الكريمة جمع الله للصابرين الصلوات في الله
والرحمة وضمن لهم الاهتداء وزف لهم البشرى.

٤ - ٧ - ضمان النصر والمدد للصابرين، كما في قوله تعالى :

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ
بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا لَّكُمْ
وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿ [آل عمران : ١٢٥ - ١٢٦] .

وقال صلى الله عليه وسلم؛

«النصر مع الصبر»^(١٦).

٥ - ٧ - الوصول إلى منزلة الإمامة في الدين:

قال العالم الرباني شيخ الإسلام الثاني ابن قيم الجوزية في كتابه
الموسوم بـ «مدارج السالكين» (١٥٤/٢):

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة
في الدين.

ثم تلا قوله تعالى :

(١٢) مضى تخريجه برقم (١٠).

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايِنِنَا يُوقِنُونَ ﴾

. [السجدة : ٢٤] .

٦ - ٧ - الحفظ من كيد الأعداء .

قال تعالى :

﴿ إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

. [آل عمران : ١٢٠] .

٧ - ٧ - الانتفاع بالعبر والاتعاظ بآيات الله في الآفاق والأنفس .

قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَاءْ يُسَكِّنِ الرَّيْحَ فَيُظِلِّنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

. [الشورى : ٣٢ - ٣٣] .

٨ - ٧ - استحقاق الصابرين دخول الجنة، ولذلك الفوز العظيم :

قال تعالى :

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾

. [الفرقان : ٧٥] .

وقال تعالى :

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ

فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

هذه الفضائل يسير من كثير، فلا جرم أن يكون الصبر ضياء ونوراً
في الأرض وذخراً في السماء.

ولله در القائل:

الصبر مثل اسمه مر مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

۸ - أمور تعین علی الصبر

لا یسلک ذو مسکة عقل أن الصبر مرّ المذاق، صعب علی النفس البشرية لأنه یعظمها عن مألوفاتها ورغباتها، لذلك فلا بدّ من تعویدها علیه شیئاً فشیئاً حتى تستسیغه وتعض علیه بالنواجذ عند المصائب والفتن. ودونك جملة من الأمور تعین علی الصبر، وتهونه کل النفس، وهي:

۱ - ۸ - معرفة طبیعة الحیاة الدنیا:

لعل أقرب أمر یعیّن الإنسان علی الصبر ویحمل النفس علیه هو تصور الحیاة التي یعیش فیها، ومعرفتها علی حقیقتها وواقعها، فهي لیست جنة نعیم، ولا دار مُقامة، إنما ممر ابتلاء وتكلیف، لذلك فالکیس الفطن لا یفاجيء بکوارثها، فالشیء من معدنه لا یتغرب.

ولله در القائل:

إن لله عباداً فُطناً طلقوا الدنیا وخافوا الفتنا
نظروا فیها فلما علموا أنها لیست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فیها سفنا

ورب العالمين يشير إلى أن حياة الإنسان محفوفة بالمخاطر مملوءة بالمتاعب في قوله:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد : ٤] .

فها هي الدنيا كما وصفت لا تستقيم على حال، ولا يقر لها قرار، فيوم لك وآخر عليك، قال تعالى:

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلَهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدُوبُهَا
بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

وقد أحسن أبا البقاء الرندي القائل:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغربطيب العيش إنسان
هي الأيام كما شاهدتها دول فمن سره زمن ساءته أزمان
وليعلم العبد الصالح أنه لو فتش العالم لم يرضيهم إلا مبتلي: إما
بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن سرور الدنيا أحلام نائم، وظل
زائل، وسحابة صيف، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً
أساءت دهرًا، وإن متعت قليلاً، منعت طويلاً.

٢ - ٨ - اليقين بحسن الجزاء عند الله:

إذا علم العبد أن الصابرين ينتظرهم أحسن الجزاء عند الله حين
يرجعون إليه، ويقفون بين يديه، فيعوضهم عن صبرهم خيراً، ويمنحهم
أجراً، ويجزل لهم المثوبة، فإنه لا شك يتصبر ويرضي بما قدره الله.
ولا يجد المتعب لآيات القرآن الكريم شيئاً ضخم جزاؤه، وعظم
أجره مثل العبد.

فها هو يتحدث عن هذا الأجر بأسلوب المدح والتفخيم.

﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

[العنكبوت : ٥٨ - ٥٩] .

وبين أن جزاءهم يكون بأحسن ما كانوا يعملون :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴿٩٦﴾ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦] .

ويصرح أن أجر الصابرين غير محدود ووزقهم غير محدود :

﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

٣ - ٨ - معرفة الإنسان نفسه :

الله سبحانه وتعالى هو الذي منح الإنسان الحياة؛ فخلقه من عدم، وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة، فهو ملك لله أولاً وآخراً، لذلك فإذا نزل بالعبء نازل سلبه شيئاً مما عنده، فإنما استرد صاحب الملك بعض ما وهب، ولا ينبغي للمودع أن يسخط على صاحب العارية إذا استردها.

وصدق لبيد بن ربيعة - رضي الله عنه - القائل :

وما المأل والأهلون إلا ودائعٌ ولا بدُّ يوماً أن تُردَّ الودائع
وفي قصة أم سليم مع زوجها أبي طلحة دليل واضح على فهم
السلف الصالح - رضوان الله عليهم - لهذه الحقيقة حيث عرفوا أنفسهم
فعرفوا مقام ربهم وقدره حق قدره .

عن أنس رضي الله عنه قال :

مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا

طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه .

قال: فجاء ففَرَّبَتْ إليه عشاء فأكل وشرب، فقال: ثم تَصَنَّعت له أحسن ما كان تصنِّع قبل ذلك، فرقع بها، فلما رأت قد شبع وأصاب منها.

قالت. يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟
قال: لا.

قالت: فاحتسب ابنك.

قال: فغضب، وقال: تركتني حتى تلطَّخت ثم أخبرتني بابني فانطلق حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره بما كان.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«بارك الله لكما في غابر ليلتكما».

قال: فحملت، قال: فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفر وهي معه، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طُرُقاً فدنوا من المدينة فضربها المخاض فاحتبس عليها أبو طلحة وانطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

قال: يقول أبو طلحة: إنك لتعلم يا رب أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج وأدخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى.

قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أجد انطلق، فانطلقنا.

قال: فضربها المخاض حين قدما فولدت غلاماً.

فقالت لي أمي: يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - قال: فصادفته ومعه ميسم فلما رأيته قال:

«لعل أم سليم ولدت».

قلت: نعم، فوضع الميسم. قال: وجئت به فوضعتة في حجره ودعا
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعجوة من عجوة المدينة فلاكها في فيه
حتى ذابت ثم قذفها في في الصبي يتلمظها. قال: فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم:

«وانظروا إلى حُبِّ الأنصار التَّمَر».

قال: فمسح وجهه وسماه «عبد الله».

[قال سفيان: قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم
قد قرأ القرآن] (١٣).

وهذه المعاني قيس من قوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

هذه الكلمة الطيبة تتضمن اثنين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما
تسلى عن مصيبته:

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة.

الأخر: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق ليوفيه حسابه.

(١٣) أخرجه البخاري (٣/١٦٩ و ٩/٥٨٧ - الفتح) ومسلم (١١/١٦ - ١٣ - نووي)
واللفظ وله وغيرهما.

وما بين معكوفتين زيادة للبخاري في الموطن الأول.

فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوّله ونهايته، فكيف يفرح بوجود أو يأسى على مفقود؟ ففكره في مبدئه ومعاده أعظم معين على التحلي بالصبر عند الشداد والمصائب والمحن والفتن، فاللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

٤ - ٨ - اليقين بالفرج :

لا يشك العاقل أن نصر الله قريب، وفرجه آت لا ريب فيه، وأن بعد الضيق سعة، ومع العسر يسرا لأن الله وعد بهذا، والله لا يخلف الميعاد.

هذا اليقين جدير أن يبدد ظلمة القلق، ويقهر شبح اليأس، ويضيء نفس المؤمن بنور الصبر الذي لا يخبو.

ولذلك ورد الصبر في كتاب الله مقروناً بأن وعد الله حق كما في قوله تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

[الروم : ٦٠] .

وقوله جل شأنه :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر : ٥٥] .

وقد وعد الله عباده الصابرين بقرب الفرج في صورتين، منها :

١ - الوعد بالسعة بعد الضيق، والرخاء بعد الشدة، واليسر بعد العسر، وفي هذا يقول جل وعلا :

﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] .

ولم يكتف الخالق - سبحانه وتعالى - أن جعل اليسر بعد العسر بل جعله في موطن آخر معه وبصيغة التأكيد حيث قال:

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥-٦] .

وفي هذه الآيات يتجلى أمرين:

(أ) تحقق اليسر بعد العسر تحققاً قريباً حتى كأنه معه وامتصل به، حتى لو دخل العسر حجر ضب لتبعه اليسر، ولن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْنِ .

(ب) إن مع العسر يسراً بالفعل ولكن حد يكون ملموساً أو مكنوناً ففي كل قدر لطف، وفي كل بلاء نعمة .

ولا يشك مؤمن عرف ربه وآمن به أن الله يقدر ويلطف:

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۗ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

لأنه أعلم بمن خلق وأرحم بهم من أنفسهم:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

٢ - الوعد بحسن العاقبة، والعبرة بالعواقب، والمدار على الخواتيم .

قال تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] .

ولقد أحسن القائل:

اشتدى أزمة تنفرجي قد آذن ليك بالبلج

ولله در القائل :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقق فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج
٣- الوعد بحسن العوض عما فات، فإن الله لا يضيع أجر من
أحسن عملاً.

قال تعالى

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الْفُتْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ لَهُمْ
الْآخِرَةَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾
[النحل : ٤١ - ٤٢] .

٥ - ٨ - الاستعانة بالله :

إذا استعان العبد بربه ولجأ إلى حماه شعر بالطمأنينة في قلبه،
والسكينة تملأ جوارحه، فمن كان في حمى الله فلن يضام.
قال تعالى :

﴿ أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ﴾ [الاعراف : ١٢٨] .

ومن كانت معية الله معه، وعين الله ترعاه، فهو حقيق أن يتحمل
المتاعب، ويصبر على الأذى.

٦ - ٨ - التآسي بأهل الصبر والعزائم :

إن التأمل في سير الصابرين، وما لاقوه من ألوان الشدائد، وما ذاقوه
من صنوف البلاء يعين على الصبر، ويطفىء نار المصيبة ببرد التآسي .
ومن هنا حرص القرآن الكريم والسنة النبوية على ذكر قصص الأنبياء

والصالحين تسلية للنبي والمؤمنين، وثبتتاً لقلوبهم في مواجهة البلاء والفتن.

قال تعالى:

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

ويجيء الخطاب الرباني لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائلاً:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾

[الاحقاف: ٣٥].

فإذا أضاقت صدره بما يفعلون، وأدركه الحزن عليهم مما يمكرون، وجد في صبر إخوانه من المرسلين ما يشد أزره، ويمضي عزمه، ويذهب همه، فهو ليس بدعاً مما أصاب الرسل من قبله، يقول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾

[الانعام: ٣٤].

٧ - ٨ - الإيمان بقدر الله وقضائه:

على المسلم أن يعلم علم اليقين أن قدر الله نافذ لا محالة، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف.

قال تعالى :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ [الحديد : ٢٢ - ٢٣]

إن الركون للصبر في مثل هذا المقام أمر محمود بل واجب لأن مقادير الله نافذة سواء أرضي العبد أم سخط، صبر أم جزع، ولكن العاقل ينبغي أن يتحلى بالصبر حتى لا يحرم المثوبة، وإلا ستؤول به السنن الكونية إلى صبر الاضطرار الذي لا قيمة له في دين الله كما بينا في شروط الصبر لقول النبي صلى الله عليه وسلم :

«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(١٤).

وذلك لأن العبد إن صبر إيماناً واحتساباً نفذت فيه المقادير وله الأجر، وإن جزع وهلع وتبرم سلى سلو البهائم ونفذت فيه المقادير، وعليه الوزر.

إن التسليم بالقدر هو مقتضى العقل والدين معاً، وإلا فليفعل ما يشاء من إظهار الكآبة والمبالغة في التوجع والتشكي، ولمن يغير من الواقع شيئاً، ولن يبدل سنن الله في الكون، وإنما يزيد نفسه كمداً وغمماً وحسرة. وانظر أيها العبد الصالح كيف يقرر الله هذه الحقيقة مخاطباً رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - حين آذاه موقف قريش وتكذيبها له :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ

(١٤) مضى تخريجه برقم (٨).

بِعَايَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَاتِيهِمْ بِعَايَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ [الانعام : ٣٣ - ٣٥] .

وقال الله عز وجل للقائنين من رحمة الله اليائسين من نصره:

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج : ١٥] .

٨ - ٨ - استصغار المصيبة:

قال صلى الله عليه وسلم:

«إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبتيه بي فإنها أعظم

المصائب»^(١٥).

(١٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/٢٧٥) والدارمي (١/٤٠) من طريق فطر بن

خليفة عن عطاء بن أبي رباح مرفوعاً.

قلت إسناده صحيح لكنه مرسل.

وله شاهد عند ابن ماجه (١٥٩٩) من حديث عائشة - رضي الله عنها.

قلت: وإسناده ضعيف من أجل موسى بن عبيدة.

وله شاهد آخر مرسل أخرجه ابن سعد (٢/٢٧٥) وابن المبارك في الزهد (٤٦٧)

وهو صحيح مرسل.

ومرسل آخر عن عبد الرحمن بن سابط.

أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٢٧١).

قلت: فالحديث صحيح بهذه الشواهد، والله أعلم.

وكتب بعض العقلاء إلى أخ له يعزيه عن ابن له يقال له: محمد،
فنظم الحديث الأنف شعراً فقال:

اصبر لكل مصيبة وتجدد واعلم أن المرء غير مُخلّد
وإذا ذكرت محمداً ومصائبه فاذكر مصابك بالنبىِّ محمّد

٩ . عقبات في طريق الصبر

لا بد لمن أراد أن يعتصم بعروة الصبر الوثقى أن يخدر من الآفات التي تعتري النفس البشرية، فتعيق الصبر، وتعرض طريقه، وهي:
١ - ٩ - الاستعجال:

الإنسان مولع بالعاجل لأنه خلق من عجل على حد قوله تعالى:

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ ﴾ [الانبياء : ٣٧] .

فإذا أبطأ الخير عن الإنسان نفذ صبره، وضاق صدره ناسياً أن لكل أجل كتاباً مسمى، وأن الله لا يعجل بعجلة الخلق.

وليعلم العبد أن لكل ثمرة أوان لنضوجها، فيحسن عندئذٍ قطافها، والاستعجال لا ينضجها بل يهلكها، وقديماً قيل:

من استعجل الشيء قبل أوانه، عوقب بحرمانه.

ولهذا خاطب الله رسوله قائلاً:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ ﴾

[الاحقاف : ٣٥] .

والاستعجال من سنن المشركين لجهلهم وسفههم فقد كانوا يستعجلون عذاب الله غروراً وعناداً ، فرد عليهم ربهم بما يقطع دابرهم :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٣] .

٢ - ٩ - الغضب :

قد يرى المسلم ما يكره، ويسمع ما يؤذيه فيستفزه الغضب إلى الأعراس عن الناس والنفور منهم، ومن ثم إلى اليأس والقنوط وهما آفة الصبر.

فيجب على المسلم أن يصبر على أذى الناس وإعراضهم عن دعوته، ويعاودهم المرة بعد المرة عسى أن يهدي الله به رجلاً واحداً، فيكون خيراً له مما طلعت عليه الشمس.

٣ - ٩ - الضيق :

قال تعالى لرسوله الكريم :

﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

وقال جل شأنه :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ ۚ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا مَّعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢] .

إن الإيمان والكفر والهدى والضلال لا يستطيع الإنسان أن يجلبها لمن أحب ويدفعها عنه، وإنما عليه التذكير والنصيحة والبيان والبلاغ.

٤ - ٩ - اليأس :

اليأس آفة الصبر الكبرى، لأنها تطفئ سراج الأمل، فيترك العبد العمل، ويخلد إلى الكسل.

ولهذا حرص القرآن الكريم والسنة المطهرة على غرس بذور الأمل في نفوس المؤمنين.

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩]

وقال جل جلاله مخبراً عن موسى وقومه :

﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ

تَعْمَلُونَ ﴿ [الاعراف : ١٢٨ - ١٢٩] .

وعلى منهج القرآن في إضاءة شعلة الأمل أمام المؤمنين درج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما جاءه خصاب بن الأريث - رضي الله عنه - يشكو ما يلاقه المؤمنون من أذى المشركين شكوى تحمل معنى الضيق والتبرم والاستعجال، فضرب له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثلاً فقال:

«لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم

أو عصب ما يصره ذلك عن دينه ويوضع المشار على مفرق راسه فيشق
بأثنين ما يصره ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من
صنعاء إلى حَضْرَمَوْت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه (وفي رواية:
ولكنكم تستعجلون)^(١٦).

وما ذلك إلا لأن الأمل أعظم معوان على الصبر على طول الطريق
وقلة الرفيق، وخاصة في زمن الغربة الذي نعيشه، فاللهم يا مقلب القلوب
ثبت قلوبنا على دينك، وافرغ علينا صبراً، وتوفنا مسلمين، وألحقنا
بالصالحين.

(١٦) أخرجه البخاري (١٦٤/٧ - ١٦٥ - الفتح) وغيره.

١٠ - الأنبياء صبروا

عني الكتاب والسنة بفضيلة الصبر، وحرصا على توجيه المؤمنين للتحلي به وممارسته خلقاً وسلوكاً فعرضاً أمثلة رائعة لتطبيق الصبر في مجالاته المتعددة وألوانه المتنوعة، منها:

١- ١٠ - أيوب عليه الصلاة والسلام.

لقد قرن اسم نبي الله أيوب بالصبر فكلما ذكر أحدهما ذكر الآخر، وأصبح اسمه مضرب الأمثال فقالوا: صبر أيوب.

وكان صبره عليه - الصلاة والسلام - على ما أصابه من ضر في بدنه، وفقد أهله.

قال تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ، وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً
مِّنْ عِنْدِنَا، وَذَكَرْنَاهُ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ [الانبياء : ٨٣ - ٨٤].

وقال عز وجل:

﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ لِي بِسُنِّي الشَّيْطَانِ يَنْصِبُ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرَكُضُ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّآ وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص : ٤١ - ٤٤] .

لقد جعل الله سبحانه وتعالى أيوب عليه السلام موضع الأسوة والافتداء فيما اختص به من فضيلة بقوله تعالى ﴿واذكر﴾ .
 وشرف الله تعالى أيوب - عليه السلام - فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب بقوله : ﴿عبدنا﴾ .

ورفع الله منزلته حين استجاب نداءه فرد عليه عافيته وأهله ومثلهم معهم وجعل له مخرجاً من يمين حلفه تخليصاً له من مأزق الحنث وتكريماً له على صبره الجميل .
 وشهد له شهادة حق :

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٤٤] .

وقد قص علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفاً من صبره :
 «إن نبي الله أيوب - صلى الله عليه وسلم - لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان .

فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين .

فقال له صاحبه: وما ذاك؟

قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشف ما به.

فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب:

لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين
يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله
إلا في حق.

قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته حتى
يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى إلى أيوب أن ﴿اركض
بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها
قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رآته قالت:

أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلي، والله على ذلك
ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحاً؟

فقل: فإني أنا هو.

وكان له أندران - أي بيدران - : أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله
سعاتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى
فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض^(١٧).

هذا وقد حكى الإسرائيليات والروايات الواهية أخباراً لا تصح حول
صبر أيوب على ما مسه من ضرر تلقفها الخيال الشعبي، فقفا ما ليس له به

(١٧) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٣٦١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٣٧٤ -
٣٧٥)، والحاكم (٢/٥٨١-٥٨٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٨٨٧) وغيرهم.
من طرق عن نافع بن يزيد عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب عنه به.
قلت: إسناده صحيح ورواته رجال الشيخين غير نافع بن يزيد وهو ثقة أخرج له
مسلم فقط.

علم، وأضاف وزاد، والله أعلم بالمراد.

ولكن عجبي لا ينقضي من بعض المفسرين الذين أوردوا تلك القصص والحكايات غير المسندة دون تعليق أو تحقيق، فصبر جميل والله المستعان وعليه التكلان.

ولعل الله - عز وجل - ييسر لهذه التفاسير من يقوم على تصفيتها من هذا الدخن.

٢ - ١٠ - يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - صلى الله عليهم وسلم .

لقد امتحن يعقوب - عليه الصلاة والسلام - بفراق أحب أبنائه إليه .

ولم يكن فراق يوسف أمراً هيناً، أو خطباً يسيراً، للآتي .

١ - لقد كان يوسف عليه الصلاة والسلام - مضرب الحسن والجمال ،

فقد آتاه الله شطر الحسن ، ومن طبيعة الجمال أن يحب .

٢ - ولم يكن فراق يوسف - عليه السلام - كأبي فراق آخر بين شخصين

يعرف كلاهما موطن صاحبه ، ويرجو أن ينتهي الفراق بقاء قريب .

وإنما كان فراقاً بعد مؤامرة أُدعي فيها موت يوسف مقتولاً .

٣ - ولم تكن تلك المؤامرة من أعداء غرباء، أو قطاع طريق أشقياء،

فقد يهون الخطب شيئاً يسيراً على النفس، لكن جاء الكيد والمكر

والخداع من إخوة لأخيهم، والكذب من أبناء على أبيهم، وقد قيل:

وظلم ذوي القرباة أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

ومع هذا كله اعتصم يعقوب - عليه السلام - بالصبر الجميل أولاً

وآخرأ مستعيناً بالله، فقال بعد فراق يوسف:

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] .

وقال بعد فرق ابنة الثاني :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

[يوسف : ٨٣] .

لقد كان صبر يعقوب - عليه السلام - ليس صبر اليائس القانط إنما صبر الأمل الراجي فضل الله، الواصل أن مع العسر يسراً وبعد الفرقة اجتماعاً:

﴿ يَبْنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ

اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] .

ومن رحمة الله بعباده أنه قدر ضعف الإنسان فلم يلم يعقوب عليه السلام على ما أبداه من أسف على يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن بل بقي في درجة أولى الأيدي والأبصار.

ولذلك فإن العبد لا يخرج عن الصبر بكرهه النفس ولا ألم القلب، وسيأتي تفصيله إن شاء الله .

٣ - ١٠ - صبر أولي العزم من الرسل .

وكان صبرهم - صلى الله عليهم وسلم - من أعلى أنواع الصبر لأنه تمثل في الثبات على الحق، وتحمل مشاق الدعوة إلى الله .

وهذا النوع من الصبر هو صبر على تكميل الآخرين، ولا شك أنه أرقى من الصبر على تكميل النفس، لأن تكميل الآخرين لا يقوم به إلا لكُمّل من المؤمنين، والخُلص من الدعاة الغيورين .

إنه صبر صفوة الأنبياء والمرسلين الذين أمر الله خاتم رسله وصفوة

خلقه ورحمته إلى العالمين أن يتخذ منهم أسوة في صبرهم حين قال - وقوله الحق:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف : ٣٥] .

أ - لقد لبث نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً في قومه يدعوهم إلى الله سرّاً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، وتبشيراً وإنذاراً، فلم يجد منهم إلا الإصرار والاستكبار، والسخرية والاستهزاء، ومع ذلك يمضي نوح عبر هذه السنين المتوالية، والأجيال المتلاحقة، دون كلل ولا ملل، وكلما أعرض قومه غير وبدل في أسلوبه.

وفي جميع الحالات كان رحيماً بهم خائفاً عليهم عذاب يوم بئس، لقد كان نوح - صلى الله عليه وسلم - قمة في الصبر، وآية في الحلم والأناة وسعة الصدر، وأمة في الجد والمثابرة، بذلك أخبر الله عز وجل:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥٩﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦٠﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ مُدْبِرِينَ إِذْ أَنبَأْتُهُمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَارًا ﴿٦١﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٦٢﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح : ٥ - ٩] .

ولم يكن صبر نوح على قومه بل تعداه إلى أهل بيته، وهذا من الشدائد والفتن التي لا يلقاها إلا الصابرون.

فالداعية قد يتلي بقومه وأصدقائه فيعاني منهم ما يعاني، لكنه إذا عاد إلى بيته وجد الراحة والطمأنينة، وهذا الذي كان يلقاه خاتم الأنبياء في كنف زوجته خديجة - رضي الله عنها.

أما نوح - عليه السلام - فقد ابتلاه الله بقومه وأهل بيته، قال تعالى:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَأَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْعًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحریم : ١٠] .

ولم تكن مصيبة نوح بزوجه آخر مصائبه في بيته، لقد رفض ابنه الإسلام، وأعرض عن أبيه ووقف في صف المشركين.
ويحاول نوح - عليه السلام - إنقاذ ابنه من برائن الشرك والوثنية، ويخلصه من مخالِب الشيطان، ولكن هيهات، قال تعالى:

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَعَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِن رَّحْمٍ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾

[هود : ٤٢ - ٤٣] .

لقد ابتلي نوح فصبِر، ودعا ربه فانتصر وآتاه الله خيراً مما أخذ منه .
فإذا أخذ الله من نوح ولداً كافراً، فقد أبدله ربه - سبحانه وتعالى - خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً، فكتب البقاء لذريته، فقال:

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧] .

ب - وإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - استمر في دعوة قومه الذين أصروا على ضلالهم حتى كانت واقعة تحطيم الآلهة، وتكسير الأصنام، فاجتمع القوم لينتقموا لآلهتهم منه، وأرادوا أن يُحرقوه في النار كما حرق قلوبهم على أصنامهم .

وأخذ إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - وألقي في النار، فما اضطرب ولا جزع ولا التجأ إلى غير الله بل قال: حسبنا الله .

ولم يكله الله إلى نفسه، ولا إلى أحد من خلقه، فكانت النار كما أراد الله، وليس كما أراد أعداء الله:

﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [الانبیاء : ٦٩ - ٧٠] .

وكما أن نوح ابتلي بكفر زوجته وابنه فقد ابتلي إبراهيم - عليه السلام - بكفر أبيه آزر، فقال تعالى:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ نَنصُرْكَ بِذُنُوبِكَ لَبِيتَ مِنَّا مَبْرُورًا ﴿٤٦﴾ قُلْ إِنَّمَا بَدَأْتُ الدِّينَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٧﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ آثَارِي مَشْرُوعِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدَّبْتُ بِرَأْيِي وَإِنِّي أَخْشَى اللَّهَ عَسَىٰ وَأَعْلَمُ الْبَالِغِينَ ﴿٤٩﴾ [مريم : ٤٦ - ٤٩] .

وامتنح - عليه الصلاة والسلام - بأن يذبح ابنه اسماعيل الذي هو بكره ووحيده، قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَنْبَأُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٢﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٥﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٦﴾ [الصافات : ١٠٢ - ١٠٧] .

إن القلم ليقف حيران أمام جواب الذبيح:

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

وإن القلم ليتعثر حياءً أمام الاستطراد في تصويرها وشرح بلاغتها وتقريبها من النفوس .

عرض من الأب في غاية السهولة، ولكنه يتضمن أمراً عظيماً ألا وهو بذل الروح طاعة لله .

ولو قال لابنه: اذهب للجهاد في سبيل الله وأرجو الله أن يشرفني بقتلك لهان الأمر، لأن الأعداء هم الذين سيقتلونه . . . أما في هذا المقام فالوالد الحليم الأواه المنيب هو الذي سيقتل ابنه الصابر الصادق . . . سيقتله ذبحاً دون أثم اقتترفه أو بهتان افتراه .

ترى ماذا كان موقف الفتى الذي نشأ في أحضان امرأة كانت ثقته بالله واستسلامها لأمره أكبر وأعظم من الوصف .

لقد حسم الموقف:

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

[الصافات : ١٠٢] .

افعل ما تؤمر:

لا تأخذ رأيي، ولا تنتظر مشورتي بل نفذ ما أمرك الله به دون هوادة ولا إبطاء .

افعل ما تؤمر:

هذا هو الإسلام: انقياد، وطاعة، وامثال، واستسلام، وتنفيذ . . . ولكن ليس للجبابة والطواغيت بل لله رب العالمين .

افعل ما تؤمر:

لأن تنفيذ أمر الله أهم من حياتي في هذه الدنيا.

افعل ما تؤمر:

لأن الله اختارنا حملة رسالة، ولن نتردد في بذل النفس والنفيس في سبيل الله.

افعل ما تؤمر:

وستجدني بمشيئة الله صابراً محتسباً.

وينتقل الإثنان من القول إلى العمل فيكون الابتلاء قد بلغ غايته، وحقق ثمرته، فلا غرو أن جاءت البشرية من السماء: ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ .

ت - وموسى كلیم الله بعثه الله ليواجه طاغوث فرعون وجبروت هامان وكبرياء قارون.

فما أن بلغ موسى رسالة ربه، حتى طفق فرعون يرغي ويزبذ، ويهدد ويتوعد، تارة بالسجن:

﴿ قَالَ لَئِنِ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾

. الشعراء : ٢٩] .

وطوراً بالقتل :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ

دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦] .

ويصبر موسى على هذا كله، ويوجه قومه إلى معين الصبر ليغتربوا منه :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الاعراف : ١٢٨] .

ث - وعيسى بن مريم روح الله وكلمته بعثه الله إلى بني إسرائيل فلم يجد من أخبارهم إلا التكذيب والعصيان والمؤامرات التي كان ثمرتها أنهم قرروا قتله وصلبه، ولكن الله أحبط سعيهم، وَخَيَّبَ ظَنَّهُمْ فَقَالَ:

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٥٦ - ١٥٧] .

لقد وضع الله سبحانه وتعالى هذه النماذج أمام رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لتكون له زاداً ورصيдаً وهو يحمل دعوة عالمية للناس كافة إلى قيام الساعة:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف : ٣٥] .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١١ - أمور لا تنافي الصبر

١ - ١١ - الشكوى إلى الله .

التضرع إلى الله والالتجاء إليه ودعاؤه في أوقات الشدة عبادة عظيمة، لأن العبد يظهر عبوديته لله، وحاجته لربه، ومسكنته بين يديه . وقد تحل بالإنسان مصيبة فيشكو همه ويث حزنه إلى الله، وهذا المقام لا ينافي الصبر، ولا يخذشه .
 فإن يعقوب - عليه الصلاة والسلام - وعد بالصبر الجميل فيما أخبر الله عنه :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] .

وقال أيضاً :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ٨٣] .

والنبي إذا أوعد لا يخلف، ومع ذلك أخبر الله عنه :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَّ إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] .

وأيوب - عليه الصلاة والسلام - أخبر الله - سبحانه وتعالى - عنه أنه من الصابرين:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] .

ومع ذلك فقد شكَا مصيبتَه إلى الله حين ناداه:

﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

[ص : ٤١] .

وفي موضع آخر:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

[الانبياء : ٨٣] .

ولذلك إذا أصاب العبد مصيبة فطلب من الله كشفها، أو تخفيفها، لا ينافي الصبر بل هو مقصد من مقاصد الابتلاء.

وإذا فقد ضالّة فطلب من الله أن يردّها عليه فلا يخذش مقام الصبر الجميل.

وإنما ينافي الصبر شكوى الله للعباد، وإظهار الجزع والتبرم والتضجر والتأفف، كما قدمنا في «شروط الصبر».

فإذا علمت أيها العبد الطائع هذا المقام تبين لك ضلال قول القائلين: سؤالك الله اتهام الله، تعالى الله عما يصفه الجاهلون علواً كبيراً وهم يحتجون بما أورده بعضهم من قول إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - عندما رموا به في النار فاستقبله جبريل فقال:

يا إبراهيم ألك حاجة؟

قال: أما إليك فلا.

قال جبريل: فسل ربك؟

فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي^(١٨).

٢ - ١١ - الحزن ودمع العين.

عن أنس - رضي الله عنه - قال:

دخلنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أبي سيف القين - وكان ظئراً لابراهيم عليه السلام - فأخذ رسول الله - صلى الله عليه

(١٨) هذا الحديث لا أصل له، وإنما هو من الإسرائيليات. أورده البغوي في «معالم التنزيل» (٢٥٠/٣) مشيراً إلى ضعفه وأنه من الإسرائيليات حيث غزاه إلى كعب الأخبار. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٥٣٩/٨).

ومن هؤلاء من يحتج ما يروي عن الخليل أنه لما ألقى في النار قال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا: قال: سل. قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. وأول هذا الحديث معروف، وهو: أما إليك فلا، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ أنه قالها: إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد - صلى الله عليه وسلم - حين قال له الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.

وأما قوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي فكلام باطل، خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء من دعائهم ﷺ ومسألتهم إياه.

وهو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا والآخرة، كقولهم: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

ودعاء الله وسؤاله والتوكل عليه عبادة مشروعة بأسباب كما يقدره بها، فكيف يكون مجرد العلم مسقطاً لما خلقه وأمر به، والله أعلم.

وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢٥٠/١) نقلاً عن ابن تيمية موضوع. قلت: انتهى مختصراً من كتابي: «القول الفصل في الأحاديث التي ليس لها أصل وأثرها السيء في العقيدة والفقه والأخلاق...»

وسلم - فقبله وشمه .

ثم دخلنا عليه بعد ذلك - وإبراهيم يجود بنفسه - فجعلت عينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تذر فان .

فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟

فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة» .

ثم اتبعها بأخرى فقال - صلى الله عليه وسلم:

«إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١٩) .

(١٩) أخرجه البخاري (١٧٢/٣ - ١٧٣ - الفتح)، ومسلم (٢٣١٥) وغيرهما .

الغائمة

رزقنا الله الحسنى وزيادة.

اعلم أيها الأخ الأصفى، والصديق الخالصة الأوفى : أن مقام الصبر
تفاوتت فيه عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال، فأكثرهم أثر الحلاوة
المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول.

وهذه حال من وقف على ظواهر الأمور، وأما الذي خرق ببصر ثاقب
حجب العاجلة فإنه يسعى حثيثاً لبلوغ الأجلة.

فادع نفسك أيها الأخ إلى ما أعد الله لأولياته وأهل طاعته من النعيم
المقيم، وكل يعمل على شاكلته، ويصبو إلى ما يناسبه، وما أولى به.

ولا تستطل هذا المقام ، فإنه هو الفاروق الأكبر ، والترياق الأعظم والله
در القائل :

فَالصَّبْرُ طَلَسْمٌ عَلَى كَنْزِ العُلَى مَنْ حَلَّ ذَا الطَّلَسْمِ فَازَ بِكَنْزِهِ
وعلى الله قصد السبيل.

فهرست المواضيع الفوائد

المقدمة	٧
ما هو الصبر؟	٩
ما هو حكم الصبر	١١
الصبر ضرورة دنيوية وفريضة شرعية	١٥
منزلة الصبر	٢١
شروط الصبر	٢٧
مجالات الصبر	٣١
فضائل الصبر	٥١
أمور تعين على الصبر	٥٥
عقبات في طريق الصبر	٦٧
الأنبياء صبروا	٧١
أمور لا تنافي الصبر	٨٣
الخاتمة	٨٧

طبع بإشراف
دار الصحابة

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com



الصبر الجميد

